

من زكريات المجد ١

وحي دار ابن لقمان

بقلم الأديب محمد فهمي

نحن الآن في ٢٢ صفر سنة ٦٤٧ هجرية ، والقصر الملكي
بجزيرة الروضة يهوج بالأصواء والظلاء والحاشية ؛ السكل يندون
ويروحون في ردهاته الفخمة في قلق شديد يكاد لا يستقر أحدهم
في مكان ، وصاحب الجلالة الملك الصالح نجم الدين أيوب جالس على
العرش تضطرب الدماء في شرايينه ؛ أعصابه تأترة ، وقلبه يخفق
خفقاناً شديداً . إنهم جميعاً ينتظرون النبأ الخطير . : نبأ المعركة
الدائرة رحاها حول أسوار دمياط . دمياط الواقعة كالسد المنيع
أمام الجيوش الأوربية الصليبية وهي تتدفق كالسيل وتحاصر ها
بقيادة ملك فرنسا (لويس التاسع) . إنها ليست حرب المسيحية
والاسلام ، وإن سموها كذلك ، وإنما هي نضال الشرق والغرب
الذي لم يحمده أواره منذ أن كان هناك شرق وغرب ؛ هي الحرب
بين مصر العظيمة زعيمة الشرق والاسلام ، وأوروبا بأجمعها ؛
هي حرب بين الغرب الطامع والشرق المدافع ؛

نعم إن أول من دعا إليها هم رجال الكنيسة باسم الدين ،
ولكن الدين من دماؤها براء ؛ فلم يخصها إلا ملك طامع في
توسيع ملكه ، أو أمير يعنى نفسه بالذهب الوفير ، أو فقير
يطلب المال والنفي من بلاد النفائس والكنوز . . .

وبينا القصر الملكي على تلك الحال من الاضطراب والقلق
إذا بفارس قد أنهكته وهناء السفر أشعث أغبر يلهث من
الاعياء ويتصبب عرقاً يقتحم ردهات القصر وطرقاته متخذاً
سمته قدماً نحو قاعة العرش . وطلب الاذن بالثول بين يدي
صاحب الجلالة . فدخل الحاجب يُعلن قدوم الرسول المنتظر ؛
انتفض الملك في مكانه وحبس أنفاسه كأنما يتهيأ للنبأ الهائل . . .
دخل الفارس وألقى بالنبأ الخطير في صوت أجش . فيه شجاعة
وفيه ألم . . . مولاي ! سقطت دمياط بعد معركة تشيب لهولها
الولدان ، ودفع بشرف شهداءنا الأبطال ! سقطت دمياط ! !

كانت هذه العبارة خنجرًا مسمومًا نفذ إلى صميم قلب الملك . . .
سقطت دمياط ! وفي عهدي أنا ؟ أبعد أن كان جدى البطل
صلاح الدين يدوخ جيوشهم في ربوع سوريا وفلسطين ، وبذيقهم
مرارة الهزيمة المرة بعد المرة ، يجروون اليوم على الدنو من المرين
الذي طالب رجفوا لذكره ؟ ! هكذا تاجى الملك نفسه في حصرة
ما بعدها حصرة . . . ثم أمر الجيش بالتجهز وسار على رأسه
للاقاء العدو الغير ، وعسكر في مدينة المنصورة ، وقد اتخذها
قاعدة لحركات الجيش

ولكن قلبه كان دائماً يئن في حشجة الذبوح من أثر
الطمنة التي أصابته عند ما ألقى إليه نبأ سقوط دمياط ؛ فما هي
إلا فترة حتى اشتد عليه المرض ، فحمل إلى قصره بجزيرة الروضة ؛
وهناك وبين يدي المرأة التي أحباها وأخلص لها « شجرة الدر »
أم ولده وولى عهده غياث الدين توران شاه فاضت روحه إلى ربها
في هذه اللحظة الزهية وقد نظرت شجرة الدر فاذا عليك
مصر وزوجها الأثير عليها مسجى على سرير الموت بين
يديها ، فتملكها الأسى على الفقيد العظيم ، ولكنها سرعان
ما أفاقت على صوت يهتف في أعماق نفسها . . . الوطن . . .
الأعداء . . . ! فولى العهد كان في تلك الأثناء ييلاد الشام ولم
يلغنه بعد نبأ الرزء الفادح . وها هو ذا العدو قد اقتحم أبواب
البلاد متجهاً نحو العاصمة . فساءلت نفسها كيف يستطيع
الجيش الثبات ومقاومة العدو إذا علم بموت الملك وقطعان الرأس
المدبر ؟ وهل تقاوم البلاد بنير رأس ؟ إن الوطن في خطر فلا بد
من الحكمة والتبصر . . . وهنا لمت في خاطرها فكرة
جريئة . . . لا . . . يجب ألا يعلم الجيش بموت الملك . . .
ثم خرجت من الحجرة وأشاعت أن الملك مريض ويرغب
الأيديخل عليه أحد ؛ وأرسلت إلى فواد الجيش وأمراته أن الملك
بأمرهم بالتأهب للقاء العدو الغير في طريقه ، بينما طيرت النبأ
إلى ولي العهد ييلاد الشام بالتقدم على جناح السرعة . . .

أخذت الجيوش الفرنسية تخوض في أحشاء البلاد قاصدة
المنصورة ، والفرزع يزداد يوماً بعد يوم ، والاستعداد قائم على
قدم وساق ؛ في هذه الساعة العصيبة حضر ولى العهد توران شاه
فاظلمته شجرة الدر على كل شيء وتسلم زمام الملك . فجمع الملك

وأمرأها . الكونت دنجواي ، والكونت داراتوار ، والكونت دويواتيه ! والكونت دويواتيه !؟ بالروعة الذكري التي يميدها إلى الأذهان اسم هذا الكونت ! ! وبالشجيرة القدر الذي ساقه ليشهد بيمين رأسه كيف تنأر مصر لشهداء بواتيه « بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ م » بعد خمسة قرون في معركة تكسو فرنسا عارا يطنى على بريق بواتيه ويسجل في تاريخ فرنسا بل في تاريخ أوروبا كلها جيروت مصر وعظمة الشرق . . .

خيم الليل على دار ابن لقمان في مدينة المنصورة حيث أودع الملك الأسير وأمرأه بلاداً ؛ وكان ليلاً رهيباً . وفي جوف الليل تذكر الملك الأسير بلادته وجيشه ومجده وآماله المحطمة والذل الذي يعانيه ، فأنحدرت الدموع غزيرة من عينيه . فخطبه أحد أمرأته الذين يشاركونه الأمر قائلاً : (لقد نصحتك يا مولاي وقلت لك إن مصر عرين الشرق ، وإن روح صلاح الدين العظيم لا زالت تغدى أشبالها ، فأبيت إلا محاولة ما أمجز قبلك امبراطور ألمانيا وريكاردوس قلب الأسد) ؟ وهنا جالجل في حنايا القاعة صوت الحارس الطواشي « صبيح » الذي وكل إليه حراسة الملك الأسير ، قائلاً : (نعم ، صدقت أيها الأمير ! إن أشبال الحمى وأبطال الوطن لنعد هذه الخاتمة لكل من رام صرام هذا الملك الأسير)

إن دار ابن لقمان لا تزال قاعة تنتظر الجيل الذي يميده إليها حياة أبطالها . وإن من السواح الأوربيين والفرنسيين على الأخص من يقصدون هذه الدار ليشهدوا بأعينهم ويسمعوا بأذانهم عظمة من أبلغ العظائم ودرساً من أقدس الدروس تلقنهم إياه مصر ؛ وإن الفرنسي الذي يتيه مجباً وخيلاً في رحاب دمشق ودرج ميدان^(١) ليحني الرأس إذلالاً أمام دار ابن لقمان . ولكن كيف يحتفظ المصريون بهذا الهيكل من هياكل المجد والفخار ! إنهم وباللعمري قد أهملوه شراً حال وتركوه نهب البلي والاقذار . وهامى ذى أحجاره وجدرانها تصارع البلي في أنفة وكبرياء ! فاية كرامة لأمة لا ترى هياكل المجد !؟ وكأني بزوار الدار من الأوربيين يقولون في أنفسهم وقد نظروا إلى حالتها المزرية هذه : (لو كانت لنا هذه

(١) الواقعة التي هزم فيها الجيش الفرنسي جيوش الملك فيصل واستولى بعدها على سوريا عقب الحرب الكبرى

الشاب كل عزمه وأصدر أوامره للقواد ، وعبا الجيوش وتأهب لليوم العظيم . . . هذا هو يوم الفصل ، فلما نصر لأوربا والجيوش الصليبية يملكها مصر وبيت المقدس ، بل وقلاع الشرق جميعاً ويقضى على الاسلام في دياره قضاء مبرماً ، وإما نصر لمصر رد هذه الموجة الهائلة ويحمي ذمار الوطن والدين . وكما كانت مصر كالصخرة الهائلة تنكسر عليها أمواج الحملات الصليبية المتتابعة ؛ . . . ها هي ذى أوربا بمظمتها وجيوشها الجرارة كاملة المدة هائلة العدد (كان جيش الصليبيين حوالي تسعين ألفاً) وعلى رأسها ملك من أعظم ملوك أوربا : لويس التاسع ملك فرنسا . . .

التحم الجيشان وبدأ الصراع الهائل : التقى صراع بين عدو مغير وبين أبطال يدفعون عن حمى الدين والوطن . وقد نفت فيهم الملك الشاب من روح الشباب وعزيمته ، فاندفعوا كالليوث يفتككون بالأعداء ؛ ولما اشتد الضغط على العدو انفتحت حوله ليكشف مكاناً للحرب ، فهاهنا إلا الماء قد حاصره من الخلف ، إذ كانت الأوامر قد صدرت بفتح جسور النيل فتدفقت مياه الفيضان من وراء الأعداء كالسيول الجارفة . . . نظر العدو فاذا البحر قد حاصره من الخلف والجيش الباسل قد أطبق عليه يرى عن قلوب تشتعل حمية وحاسة للوطن والدين ، وينظر الملك لويس والحسرة تنمش قلبه فيرى أشلاء جيشه تطاير تحت مطارق الأذرع الحديدية من جنود مصر . هاهم أولاء جنوده يتساقطون في الميدان حوله جماعات كالفراش . ومن طلب الفرار من شفرات السيوف ابتلمه اليم . . . وإذا بفرقة من الجيش المنتصر تتقدم نحو الملك « لويس » . . . هاهم أولاء بعض الأمراء والفرسان المحيطين به يناجزونها مناجزة اليائس المستميت مدافع عن ملكهم . ولكن ماذا تجدى شجاعة بضعة أفراد أمام جيش كله أبطال ؟ ! فها هي إلا جولة أو بضع جولات حتى كان الملك ومن بقى معه من الأمراء جميعاً في الأسر ! ! وإذا بالجيش المرصم قد انهيار كما ينهار البناء الشامخ . . . ! !

انجالت المعركة عن فناء العدو وقد بلغ عدد قتلاه ثلاثين ألفاً خلاف الأمري ، وكُتبت آيات النصر بمداد غزير من الدماء . هاهو ذا الملك العظيم توران شاه يعود إلى المدينة بجياله أكاليل النصر والفخار ، ويحوق وراؤه في السلاسل والأغلال ملك فرنسا

بناء العلم

السبر جيمس مينز

ترجمة ابراهيم البرلسي

إذا ما تجمع لدى الباحثين قدر مناسب من الحقائق في ناحية من النواحي العلمية ، فالخطوة التالية تكون محاولة إيجاد قاعدة عامة تربط هذه الحقائق جميعها ؛ وقد تتفق هذه القاعدة أو لا تتفق مع الاعتبارات المقررة . ولا يكفي أن تفسر هذه القاعدة الحقائق المعروفة ، بل لا بد أن تتفق مع كل ما يكشف منها ؛ فهي على ذلك لا تكون إلا بمثابة افتراض ؛ ويبدأ العالم بأن يقول : « إن التجارب أثبتت هذه الحقائق ، وأرى أن افتراضاً معيناً يتفق معها جميعها » ثم يستمر هو وأمثاله في العمل للحصول على بيانات أدق وأوفى مرتبطة بالحقائق الأولى ؛ وكثيراً ما يؤدي ذلك إلى الوصول إلى حقائق جديدة . ويمتحن الافتراض الأول بمطابقته للمعلومات الجديدة

أما إذا وجد افتراضان متناقضان ، فقد يكون ممكناً أن تثبت الصحيح منهما ؛ فإذا أمكننا مثلاً أن نبين أن ظاهرة « س » تحدث إذا كان الفرض الأول صحيحاً ، ولا تحدث إذا كان الفرض الثاني صحيحاً ، فبأجراء تجربة لمشاهدة الظاهرة « س » يثبت أحد الافتراضين

هذه التجربة كغيرها : هي في الواقع توجيه سؤال للطبيعة وهو : « هل يستقيم الفرض الأول ؟ .. » وهي تجيب بأن تربنا إما ظاهرة منافية للفرض أو متفقة معه ؛ ولكنها لا تستطيع مطلقاً أن تربنا ظاهرة تثبت صحة هذا الفرض ، لأن ظاهرة واحدة تكفي لتهدم فرضاً معيناً بينما لا تكفي ملايين الظواهر لإثباته . ولهذا السبب لا يستطيع العالم أن يجزم بمعرفة أي شيء على وجه التأكد ؛ اللهم إلا الحقائق الباشرة للمشاهدات . وإذا تعدى هذا فلا يستطيع التقدم إلا بافتراضات متعاقبة تحظى الواحدة منها باتفاقها مع حقائق أكثر من سابقتها وتتخلل كل منها لمن تتبعها ؛ وفي الواقع لن يأتي وقت الانتقال من الافتراضات إلى التأكيدات

الدار لجمالها كعبة يحج إليها الشباب والفتيان ليستمعوا أبلغ أناشيد المجد والبطولة ترددها جوانب هذه الدار ، ولجمالها رمزاً خالداً على الدهر ، تعجد في رحابها أرواح أسلافنا الأبطال وهي ترفرف محوكة بين جدرانها ؛ ولكنها وبالأسف المرير لشعب لا يرى مجد آبائه !!

إيه أيتها الدار !! لقد خط المجد على جدرانك أروع آيات البطولة ؛ وفي رحابك سجن ملك من أعظم ملوك أوروبا حاول اقتحام الوطن بجيشه المرمم فتلقفته سيوف الأبطال والأشبال ، فإذا الجيش أشلاء تتطاير على شفرات السيوف وأسنة الرماح ، وإذا بالملك العظيم . . سجين جدرانك . . !!

ألا خبرينا أيتها الدار ، كيف شهدت أوروبا النجيرة العاتية التي خرجت بجيوشها الجرارة لأذلال مصر ؟ كيف شهدت تذوق دموع الحسرة والتفجع ، وأنان الأسى والحزن ، وهي ترسف في قيود الأسر وذل الهزيمة . في شخص « لويس التاسع » ملك فرنسا . . . !!

ألا تكلمني أيتها الدار ، فكلمة منك توقظ الأسماع وتهز القلوب . لأنك تتحدثين بلسان من قد رأى وقد سمع !!

ألا تكلمني ، فكلمة منك تقشع عناكب النسيان والجهل التي خيمت على صفحات المجد والبطولة من سفر تاريخنا الحافل . . . أيتها المصريون ! ألا إن بقاء هذه الدار بمجالها الحاضرة الزرية لطمنة في صميم الكرامة المصرية والوطنية المصرية والشهوان الحى لأمة تعرف مالها من كرامة ومجد وتاريخ . . .

محمد فهمي

(المنصورة)

علنا أن هناك مشروعاً لنق شارع حول دار ابن لقمان ، ولكنا نريد عناية خاصة بهذه الدار تنفق وجلال ذكراها

أعداد الرسالة الممتازة

إدارة نشر وترويج الصحف العربية بشارع محمد علي بالقاهرة لصاحبها محمد مصطفى الفقيه تعان جمهور (الرسالة) بأن لديها كمية محدودة من الأعداد الممتازة رقم ٤٢ و ٩٣ و ١٤٦ ، ترسل إلى من يطلبها بسعر ثلاثين ملياً للعدد الواحد خالصاً أجرة البريد في مصر والسودان وأربعين ملياً في البلاد الأخرى